

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩ - سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

قال المهايغي: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعميم ، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .
وهي مدنية ، وآياتها ثمان عشرة .
وقد انفردت هذه السورة بأدب جليلة ، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما ياملون به نبيه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال ابن جرير (١) :

أى يا أيها الذين أقرؤا بوحدانية الله ، ونبوة نبيه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضى الله لكم فيه ورسوله ، فتقتضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله .
حكى عن العرب : فلان يقدم بين يدي إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهي دونه . انتهى .

و (تَقْدِمُوا) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبيين .

وفي هذه الجملة تجوزان :

أحدها - في (بين اليدين) ، فإن حقيقة ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورها ويحاذيها . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعتها ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف في أمثاله - هذا محصل ما في (الكشاف) و (شروحه) .

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا في الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحمك؟ قال : بكتاب الله تعالى . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيي ! فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد^(١) وأبو داود^(٢) والترمذي^(٣) وابن ماجه^(٤) . والغرض منه أنه أصر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدي رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُوا) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لأستجيز القراءة بخلافها ، لإجماع الحجة من القراء عليها . وقد حكى عن العرب : قدمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لاتقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً . انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ - كتاب الأفضية ، ١١ - باب اجتهاد الرأى فى القضاء ،

حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ - كتاب الأحكام ، ٣ - باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرج به ابن ماجه .

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ماتقدم ، بمنزلة قولك للمقارن بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك . فتمناه أولاً عن عين مآقارفه ، ثم نعمت وتأمره بما لو امتثل أمرك فيه ، لم يرتكب تلك الفعله ، وكل ما يضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها - أشار له الزمخشري - .

« إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى تحقيق أن يُتَقَى وَيُرَاقَب .

تنبية :

فى (الإكليل) : قال السكيا المراسى : قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شىء . وربما احتج به نفاة القياس ، وهو باطل منهم . ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » أى : إذا نطق

ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحد الذى يبلغه صوته ، لىكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلفظكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسمع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بىمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين ، القريب من الهمس ، الذى يضاد الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب العظيم . وروى عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أى لانفادوه كما ينادى بعضكم بعضاً :

يا محمد ! يا محمد ! بل يابني الله ! يا رسول الله ! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض ، كما مر في قوله ^(١) (لَا تَجْمَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المروي عن مجاهد في قالب ذلك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل في إثارة أرق الألفاظ والجل ، وألفها في ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب . وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ » أي مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أي لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن الذكور في الآية كبيرة محبطة ولا فرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة ، المحبط للأعمال هو السكر خاصة ، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة السكر المحبط ، أو هي للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام . والقاعدة المختارة أن إيذائه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ السكر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام ، سواء وجد هذا المعنى أو لا ، حماية للذريعة ، وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا النهي عنه - وهو رفع الصوت - منقسماً إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولاً ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله (أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . وإلا فلو كان الأمر على ما تقدمه المعتزلة ، لم يكن لقوله (وَأَنْتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ (موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون ككفرًا محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاله ، الإحباط به محقق ، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الشعور ثابت مطلقاً - والله أعلم - .

ثم قال : وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاها صحيحة :

إحداها - أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به العقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى - أن إيذاء النبي ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا - يعنى المالكية - وأفتوا بقتل من تعرض لذلك ككفرًا ، ولا تقبل توبته ، فإنا أناه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى فى مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ » أى يبالبغون فى خفضها « عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير (١) : أى اصطفاها وأخلصها للتقوى

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ » أى يدعونك « مِنْ وَرَاءِ » أى خارج « الْحُجُرَاتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالاً لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يفضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بنذائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده

غير واحد .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

يارسول الله ! إن حمدي لزين ، وإن ذمّي لشين ، فقال : ذلك الله عز وجل .
 وروى ابن إسحاق ، في ذكر سنة تسع ، وهي المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ
 لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من
 كل وجه ، فكان منهم وفد بني تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء
 حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم .
 ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال : وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ
 وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثاني - (الْحُجُرَاتِ) بضمين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً :
 جمع (حجرة) . وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها . فُعْلَةٌ بمعنى مفعولة ،
 كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشري : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لسكل واحدة منهن
 حجرة . ومناداتهم من وراءها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطبلين له ، فناداه
 بمض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من
 وراءها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمة . والفعل - وإن كان مسنداً إلى جميعهم - فإنه يجوز
 أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقيون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث - قال الزمخشري : ورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على
 الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها - مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .
 ومنها - لفظ (الْحُجُرَاتِ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .
 ومنها - المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم .
 ومنها - التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها - أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهيئاً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلياً له ، وإمالة لما بداخلة من إيحاء تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد . ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر ، كأن الأول بساط للثاني ، ووظء لذكره . ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك ، ففضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته آثم ، من الصياح برسول الله ﷺ ، في حال خلوته بيمض حرمانه من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً . ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دقت باباً على عالم قط ، حتى يخرج في وقت خووجه . انتهى .

الرابع - قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حياً ، وفي قبره ﷺ ، . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فدارتفعت أصواتهما ، فخصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتم ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس - روى البخاري^(١) عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بني تميم على

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٩ - سورة الحجرات ، ٢ - باب إن الذين

يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ، حديث ١٩٤٢

النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمر الأقرع ابن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ! فقال عمر : ما أردت خلافتك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...) حتى انقضت الآية .

وفي رواية : فأُنزل الله في ذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ...) الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم . قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة (لَا تَقَدَّمُوا) ولكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوا) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ) . انتهى . وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله ، بأن قولهم : نزلت الآية في كذا ، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية : قولهم نزلت هذه الآية في كذا ، يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أنه ذلك داخل في الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول ، فاحفظه ، فإنه من المضمون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاريّ ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، في قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » أى : فاستظهر واصله من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم « فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها ، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم في العواقب .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ، حين بثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق . وقد روى ذلك من طرق . ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد^(١) في مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق ، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعاني إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ! أرجع إلى قومي فأدعهم إلى الإسلام ، وأداء الزكاة ، فن استجاب لي جمعت زكاته ، ويرسل إلى رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأت ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقتاً لي وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا فنأى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن الحارث منعى الزكاة ، وأراد قتلي . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث . فأقبل الحارث بأصحابه ، حتى إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة ، لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ! فلما غشيمهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعتة الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيته بته ، ولا أتاني . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟! قال : لا ، والذي بعثك بالحق ! ما رأيته بته ، ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال : فنزلت الحجرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه ، فرأى الذي يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

وغيرهم في هذه الآية ، أنها نزلت في الوليد بن عقبة - والله أعلم - انتهى .

قال ابن قتيبة في (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبي مميظ بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كرز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق ، فأناؤه فقال : منعموني الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بني تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربماً ، وقال : أزيدكم ؟ ! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فمزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع على ، فخرج إلى الرقة فنزلها ، واعتزل علياً ومعاوية . ومات بناحية الرقة .

الثاني - في (الإكليل) : في الآية ردّ خبر الفاسق ، واشترط العدالة في الخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث - في قوله تعالى (فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) فائدتان :

إحداها - تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَنْ تُصَبِّحُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فاذا على ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه .

والثانية - مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها - أفاده الرازي - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكَفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

« وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ » قال ابن جرير^(١) : يقول تعالى ذكره لأصحاب
نبي الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا
الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوم به على الصواب
في أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبري^(١) : أي لو كان رسول الله ﷺ
يعمل في الأمور بأرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنت - يعني
الشدّة والمشقة - في كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ في أفعاله ،
كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ،
وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فزأهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل
وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال
قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما في حيزها سادة مسدّ مفعولى (أَعْلَمُوا) باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله :
« لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور في (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم
كائنًا على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهي أنكم تودّون أن يتبعكم في كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم في الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع في بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزخشرى منع هذا الاحتمال ، قال : لأدائه إلى تنافر العظم ، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ ...) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ في قوله : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرطون فيما يجب له من التعظيم ، وفي أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف ، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ) .

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَّ وَزَيْنَهُ وَفِي قُلُوبِكُمْ » أى فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتوا به ، فيقمكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .
« أُولَئِكَ » أى الموصوفون بحجة الإيمان ، وتزينه في قلوبهم ، وكرهتهم المعاصي « هُمُ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانى : كان فضلاً بمنابته بهم في الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتعبة لهذه الكلمات في الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانتة بإفاضة الكلمات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكره المعصية . وهو تعليل لـ (حَبِيبٌ) و (كَرَهُ) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلاً ، أو يبتغون فضلاً .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ،
وتصرفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ
إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ، فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ
فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)
« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا » أى تقاتلوا « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا »
قال ابن جرير (١) : أى بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لها وعليهما ، وذلك
هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى » أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة
إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلاً بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ،
« فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي » أى تعدى وتأنى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ »
أى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِنْ فَاءَتْ » أى رجعت الباغية ،
بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أى بالإنصاف
بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلاً بين خلقه « وَأَقْسِطُوا » أى اعدلوا
فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » أى فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول - قال القاشانى : الافتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ،
والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من
(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

لزوم العدالة في النفس التي هي ظل الحجة، التي هي ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما ، حتى ترجع . لكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا في بعض ما نازعتا فيه بالنعال والأيدي ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح . روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذي نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال - فيما رواه الطبري^(١) عنه - : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِنْ طَآئِفَتَانِ) إلى قوله (فَاقْتُلُوا آلَئِي تَبَغَى ...) الآية . يقول : ادفعوا إلى الحكم ، فكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها ففتسع لها . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلاً . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتسكون الفائدة أشمل - والله أعلم - .

الثاني - في (الإكيل) : في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّى تَفِيءَ) . انتهى . وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلى يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن أتى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يفتن لهم مال ، ولا نسبي لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببيعتهم ولا قتلهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمفوا ما أتلّفوه حال الحرب من نفس أو مال . ومن قتل من أهل

(١) انظرو الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

البنى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل في قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة ، وترك الجماعة ، واستحلال دماء المساميين وأموالهم ، ولم يجتمعوا للحرب ، لم يتعرض لهم . وإن جنوا جنابة وآتوا حداً ، أقامه عليهم .

وإن اقتتل طائفتان لعصية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى . هذه شذرة مما جاء في (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث - قال في (شرح الإقناع) : في الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبنى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم . وإجازة كل من منع حقاً عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في المنشط والمكروه ، وأن لا ننازع الأمر أهله (متفق عليه) (١) . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعي الزكاة ، وعلياً قاتل أهل الجمل ، وأهل صفين . انتهى .

وتدل الآية أيضاً على وجوب معاونة من بنى عليه ، لقوله (فَفَقْتِلُوا) ، وعلى وجوب تقديم النصيح ، لقوله (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى في المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع - وجه الجمع في (أَقْتَمَلُوا) ، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلنا) هو الجمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . والنكته في اعتبار المعنى أولاً ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩٢ - كتاب الفتن ، ٢ - ياب قول النبي صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تفكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث ٤١ و٤٢ (طبعنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور في الاستعمال ، ما قيل إنهم أولاً في حال القتال مختلطون مجتمعون ، فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً .
وسرُّ قرْنِ الإصلاح الثاني بالعدل، دون الأول، لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهاهم أنهم لما أوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس - (أقسط) الرباعي همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثي ، فعناه جار . قال (١) تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور - خلافاً للزجاج - في جعلهما سواء - أفاده الكرخي - . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب: وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة تشبيه بليغ، أو استعارة. شبه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدى في الجنان .

« فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوها على حكم الله ، وحكم رسوله . قال القاشاني : بين تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقربة الفطرية ، التى تزيد على القربة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

التناسب في اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذي هو من لوازم العدالة ، وأحد خصائصها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بفواشى النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرافة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادةهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمّر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة في التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزم المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر أزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع ، أكثر منه في شقاق الاثنين - أفاده القاضي والزخشرى - .

وفي معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث^(١) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث^(٢) (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) . وحديث^(٣) (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر) . وحديث^(٤) (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم - وكلها في الصحاح - .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٦ - كتاب المظالم والغصب ، ٣ - باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٨ - كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢٧ - باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨ - كتاب الصلاة ، ٨٨ - باب تشبيك الأصابع في المسجد

وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبي موسى .

« وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمهم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ ، بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين ، ليس ما يظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترى أحد على استحقاق أحد ، فلعله أجمع منه ، لما نيظ به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنى للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبري^(١): والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنبيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميع معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد عدّ الغزاليّ في (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطاب وراءه فننقله هنا تكميلاً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة - السخرية والاستهزاء : وهذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا لِيَسْخَرَ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ...) الآية . ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضی الله عنها : حاكيت ، فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ، ولي كذا وكذا .

وقال ابن عباس في قوله تعالى ^(١) (يَوْمَلْتَقَا مَالٍ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة التهقبة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : من عير أخاه بذنب قد تاب منه ، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقاق الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أي لا تستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تحبب فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .

وعلى صنمته أو على صورته وخلقتة ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهية عنها . انتهى .
لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوام على النساء (والأحسن المهمات) وهو في الأصل إما جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع في الجمع . وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب ، أو لأنهن توابع . واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجري بين بعض وبعض .
« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أي لا يعيب بعضكم على بعض ولا يظن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوا) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنْفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما في قوله (١) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ) وقوله (٢) (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففي اللفظ الكريم تجوز ، وتقدير مضاف . والنهي على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه ، إذ السخرية ذكروه بما يكره على وجه مضحك بحضرتة ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية ، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلهزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لزم

نفسه .

(١) [٩ / التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : ف (أَنْفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوز في قوله (تَلْمِزُوا) . فهو مجاز ذكر فيه المسبب ، وأريد السبب . والمراد : لا ترتكبوا أمراً تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُوا) ، كما في (الكشف) ، وكونه من التجوز في الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتعليق للنهي السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما في الحديث ^(١) (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسر بأنه إذا شتم والدي غيره ، شتم الغير والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » أى ولا تدعوا بالألقاب التي يكره النبي بها الملقب فقد روى أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يفضبون من الدعاء بها رواه أحمد ^(٢) وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يا فاسق ، يا منافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية - كما قال ابن جرير ^(٣) - : تشمل ذلك كله . قال : لأن التناز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« يَسُّ الْأَسْمَاءُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » قال الزمخشري : (الْأَسْمَاءُ) ههنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل يسُّ الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكابه هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفي قوله (بَعْدَ الْإِيمَانِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعتنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أحدها - استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول :
بئس الشأن بعد الكبرية ، النبوة .

والثانى - أنه كان فى شتأهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى ! يا فاسق ! فهو عنه ،
وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا
التفسير متعلقة بالنهى عن التنازع .

والثالث - أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة :
بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير^(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه
غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن
التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته :
يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ،
ولمز أخاه المؤمن ، ونزّه بالألقاب ، فهو فاسق (بئسَ الأسمُ الفُسُوقُ بعدَ الإيمانِ) يقول :
فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقاً ، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ما وصفنا
من الكلام ، اكتفاءً بدلالة قوله (بئسَ الأسمُ الفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى
وقال^(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه
فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه
ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبيح ما كان التائب أتاه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم
تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ،
أو بالقبيح . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَمَنْ لَمْ يَتُبْ » أى من نزه أخاه بما نهى الله عن نزهه به من الألقاب ، أولمزه إياه ، أو سخريته منه « فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءاً ، فإن الظان غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفتدة من هواجسه ، إذ لاداعية تدعو المؤمن للشى وراءه ، أو صرف الذهن فيه ، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن . قال تعالى (١) (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من أتى جلباب الحياء ، فلا غيبة له . ولذا قال الزمخشري : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرماً ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب ، والمجاهرة بالجباث .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزاليّ في (الإحياء) في بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بما ساءى الغير ، فليس لك أن تحدّث نفسك ، وتساء الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه ، بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن . والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » . قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا ^{الإنسان} الأعلام الغيوب ، فليس لك أن تتمقّد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تتمقّد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعيّنك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق . إل أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعين مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، ذكر سبحانه النهى عنه ، إثر سوء الظن لذلك ، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُوا » قال ابن جرير^(١) : أى لا يتبع بعضهم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرايره ، يتغنى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن افنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرايره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب ، لأن من يطلب الشيء يمسّه ويحسّه ، فأريد به ما يلزمه . واستعمل التفعّل للمبالغة فيه .

قال الغزاليّ : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله . فيتوصل إلى الاطلاع ، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث^(١) أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود^(٣) : أن ابن مسعود رضى الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمرًا ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به - والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود^(٤) عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد^(٥) عن دجين ، كاتب عقبة ، قال : قلت لعقبة : إنا لنا جيرانا يشربون

(١) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البرّ والصلة ، ٨٥ - باب ماجاء في تعظيم المؤمن ،

عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخارى في : ٦٧ - كتاب الفساح ، ٤٥ - باب لا يخطب على خطبة أخيه

حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ،

حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

الخمير ، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدهم ! قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخذهم ! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فكأنما استحي مؤودة من قبرها !

وروى أبو داود ^(١) عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريسة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعي : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .
« وَلَا يَمْتَنِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » أي لا يقل بعضهم في بعض بظهر الغيب ، ما يكره القول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واعتابه ، كغاله واعتاله ، إذا ذكره بسوء في غيبته .
« أَيُجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغي أن نكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

لطائف :

الأولى - قال الزمخشري : (أَيُجِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أظفح وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها - الاستفهام الذي معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقةً أو ادعاءً) ومنها - جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . ومنها - إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك .
ومنها - أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أذا .
ومنها - أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ - باب في النهي عن التجسس ، حديث

حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: فمن ذلك قوله تعالى (أُيْحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يفتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كالحجم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغته في استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها، مع العلم بقبحها فانظر أيها التأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنایات شهماً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى .

الثانية - الفاء في قوله تعالى (فَكَّرِهْتُمُوهُ) فصيححة في جواب شرط مقدر . والمعنى :

إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضي ، كما في قوله تعالى (١) (فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَّرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاعتياب المفهوم منه . والمعنى : فأكروهه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضي للمبالغة ، فإذا أوّل بما ذكر يكون إنشائياً غير محتاج لتقدير (قد) - أفاده الشهاب - .

الثالثة - قال ابن الفرّس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمي ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل في تحريم النية، ولم يضرب بميعة سائر الحيوان. فدل على أنه في التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث النية فعليه (بالإحياء) للغزالي ، فإنه جمع فأوعى .
 « وَأَتَقُوا اللَّهَ » أي خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاعتياب وغير ذلك من المناهي. « إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » أي يقبل توبة التائبين إليه ، ويمتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى ، بعد نهيهِ عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض ، على تساويهم في البشرية ، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَايِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ » أي من آدم وحواء . أو من ماء

ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أي : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب .

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَايِلَ لِتَعَارَفُوا » قال ابن جرير^(١) : وجعلناكم متناسبين ،

فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعمده ، لا لفضيلة لكم في ذلك ، وقربة تتركبكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » أي أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لأعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أي بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتق والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تدبيهاات :

الأول - حكى الثعالبيّ في (فقه اللغة) في تدرّج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلابيّ عن أبيه : أن الشعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّقيّ : الصحيح في هذا ما رتبّه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العِمارة وهي الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهي الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حتى عدداً في الحواء ثم القبيلة
ثم يتلوها العِمارة ثم الـ بَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكن هي في جنب ما ذكرنا قليلة

نخزية شعب ، وكفانة قبيلة ، وقريش عِمارة ، وقصيّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكريّ في (شرح نوادر أبي عليّ القالي) : كل الناس حكى الشعب في القبيلة بالفتح ، وفي الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبي عبيدة بالعكس . نقله الزبيديّ في (تاج العروس) .

الثاني - في الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذمّ التفاخر بها ، وأن التقى غير النسب ، يقدم على النسب غير التقى ، فيقدم الأورع في الإمامة على النسب غيرهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط في الكفاءة الحرية - نقله في (الإكليل) - .
وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لِيَتَعَارَفُوا) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضهم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت في معرض البيان . وقال القاشاني : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى . والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله ، وأجل قدراً . فالمتقى عن المفاهى الشرعية ، التى هى الذنوب ، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشمره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع - روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارى^(١) عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فمن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخيركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى (وَأَتَّخِذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ

خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم^(١) عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام^(٢) أحمد عن أبي ذر قال : إن النبي ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتمين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليمكونن أهون على الله تعالى من الجمالان .
وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عمية الجاهلية وتعظمها بأبائها . فالناس رجالان : رجل برٌّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر يتقى ، هين على الله تعالى . إن الله عز وجل يقول : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . . .) الآية .
وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري^(٣) عن عطاء قال : قال ابن عباس : ثلاث آيات ججدهن الناس : الإذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىكُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب ، والإنكار على مساوى أخلاقهم ، ثم تأثرها من المناهى عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات ، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهى ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان ، ثم بيان من المؤمن حقاً ، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البر والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعنا)

عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ
أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم في أول السورة « ءَأَمَّنَا » أى بالله ورسوله ،
فنجن مؤمنون ، زعمًا أن التلفظ بمادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُلْ لَمْ
تُؤْمِنُوا » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه ، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَكِنْ قُولُوا
أَسْلَمْنَا » أى اتقنا ودخلنا في السلم خوف السبأ والقتل « وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ »
أى لأنه لو حل الإيمان في القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة ،
والبعد من ركوب المناهى ، فإن لكل حق حقيقة ، ولكل دعوى شاهد . فإن قيل : في قوله
(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) بعد قوله (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) شبه التكرار من غير
استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَمْ تُؤْمِنُوا) تكذيب دعواهم ،
وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم :
ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من
الضمير في (قُولُوا) . وما في (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ،
فلا تكرار . وهذا ما أشار له الزمخشري ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا
منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل
بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق ، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب
كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

obeikandi.com

وأهل الحجاز - لانه ليتاً - وحكى الأصمى عن أم هشام السلوية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرى باللغتين (لَا يَلَيْتُكُمْ) و (لَا يَأْتِكُمْ) . ونحوه فى المعنى ^(١) (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِمَّن لَّمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِمَّن لَّمْ يَرْتَابُوا » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإتفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى - قاله ابن جرير ^(٢) : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها ، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى: بذلوا الجهد. أو مفعوله مقدر، أي العدو أو النفس والهوى.

«أَوْ لَيْسَ لَكَ هُمْ الصَّادِقُونَ» أي الذين صدقوا في ادعاء الإيمان، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض يكذب أولئك الأعراب في ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر. أي: هم الصادقون، لا هؤلاء، أو إيمانهم إيمان صدق وجد.

تنبيهات:

الأول - قال في (الإكليل): في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان. وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف، ويراجع في ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله في (الفصل).
الثاني - قال القاشاني: في قوله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ...) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقي، وهو اليقين الثابت في القلب المستقر الذي لا ارتياب معه، لا الذي يكون على سبيل الخطرات، فالؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم، ونورتها بأنوارها، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يتمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهياتها، وذلك معنى قوله (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بعد نفي الارتياب عنهم، لأن بذل المال والنفس في طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره في الظاهر. انتهى.

الثالث - قال في (الكشاف): فإن قلت: ما معنى (ثم) ههنا، وهي للترخي. وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين:

أحدها - أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان، أو بعض المضلين، بعد تلج الصدر، فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه. أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك، راكباً رأسه، لا يطلب له مخرجاً. فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله (ثُمَّ اسْتَقَمُوا).

والثاني - أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان ، أفر دبالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخي ، إشعاراً باستقراره في الأزمنة التراخية المتطاولة غصاً جديداً . انتهى .

يعنى : أنه إما نفى الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولاً لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخي زمانى لا رتبى على ما مرّ في قوله: (ثُمَّ اسْتَقَمُّوا) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أصالته في الإيمان ، حتى كأنه شيء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتَعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءَامِنًا) . « أَتَعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ » أى أتخبرونه بقولكم (ءَامِنًا) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثاني بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمن معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءَامِنًا) إن كان إخباراً للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه ، وهو العالم بكل شيء ، كما قال « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير^(١) : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه في دينهم . يقول : الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائرهم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء . ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مخفوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْمَعُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَ كُمْ ، بَلِ اللَّهُ

يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْمَعُوا » أى اتقادوا وكثروا سواد أتباعك . « قُلْ لَا تَمُنُّوا

عَلَيَّ إِسْلَمَ كُمْ » أى بإسلامكم ، إذ لا عمرة منه إلى^(١) (مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَتَّبِعُهُ لِتَكْفُرَ بِهِ إِذَا اتَّعَبْتُ مِنْهُ هُدًى مِّنِّي) « بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى قولكم

(ءامناً) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير^(٢)

يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن

الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ،

فلا تعلمونا دينكم وضائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شىء فى خبايا السموات والأرض .

تنبيهات :

الأول - روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله

ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم تقاتلك . فقال رسول الله ﷺ :

إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم - ونزلت هذه الآية - .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون الحديث عنهم

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

في آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنّيين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم في غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبا لقبيلة واحدة - والله أعلم - .

الثاني - في قوله تعالى (بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل في الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبي ﷺ للأَنْصَارِ يَوْمَ حُنَيْنٍ (١) :
يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فأنفككم الله بي .
وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ - كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمّن .

وما لطف قول أبي إسحاق الصابى في طليمة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى :
وبعث إليهم رسلاً منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويمدّون بهم عن المسلك التميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم في الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجحهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبدعهم في الفضل غاية ، وأبههم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، الذى أتخذهم صفيًا وحبيبًا ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم في المعاصى حمية ، ونفوسهم في غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئًا . فلم يزل ﷺ يقذف في أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لئلا كان وحيدًا ، وبالغنف لئلا وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسمًا إلا أزاله وعفاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخارى في : ٦٤ - كتاب المغازى ، ٥٦ - باب غزوة الطائف ، حديث

رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتواعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، راحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث - قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرها من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل في طائفتهم ، السالك لطريقهم ، إما أن يكون حاضرًا عندهم ، أو غائبًا عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

- أحدها - يتعلق بجانب الله .
- وثانيها - بجانب الرسول .
- وثالثها - بجانب الفاسق .
- ورابعها - بالمؤمن الحاضر .
- وخامسها - بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) ، وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .
وقال ثانياً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ثالثاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكُمْ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله (وَإِن طَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَقَتُوا) .

وقال رابعاً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَرُوا)

لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزراء بحلهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُوا) وقال (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز

عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذي . وهو في غاية الحسن

من الترتيب .

فإن قيل : لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله

ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ،

ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ،

والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب ،

فلا يؤدي المؤمن إلى حديد يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبي الفاسق ،

آية الاقتتال فقال (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) ؟ انتهى .